AL-MUKHATABAT N° 05 ANNEE 2/ 2013 ISSN : 1737-6432

# الحكمة والحكمة الموهومة.

# النسق المعرفي أو "الطريق إلى الحكمة الفعلية"

**Mohamed Eriouiche**

**(**Etablissement Dar E Hadith El Hassania, Rabat**)**

**Résumé**

Dans cet article, j'ai essayé de mettre en lumière le fameux voyage épistémologique de ce que l'on représente, depuis longtemps, comme étant la 'vraie connaissance' du monde et des choses. La connaissance n'a jamais été totalement à l'abri, même si on prétendait qu'elle a été anéantie par les soi-disant 'ennemis de la vérité humaine' que sont les sophistes de tout bord. On essaie ici d'analyser cette idée.

**الملخص**

لقد حاولتُ في هذا المقال، تسليط الضوء على ذلك الرحيل الإبستيمولجي الذي نهجه ما يمكنُ تَمَثُّله ب"المعرفة الحقّة" للعالم والأشياء. المعرفة لم تكن آمنة في يوم من الأيام، لقد كانت عرُضةً للإعدام من طرف "أعداء الحقيقة الإنسانية" المتمثلين، طبعا، في السفسطائيين. هنا، نحاول تحليل هذه الفكرة بشيء دقيق.

**Abstract**

In this article, I am trying to explain the epistemological travel for the so-called 'true knowledge' of the world and of reality. Knowledge was not quite away from any danger, even if it was accused of being destroyed by the so-called 'enemies of human truth', namely the 'Sophists'. Here, we try to analyze precisely this idea.

إن تزكية النفس الصديانة إلى الفلسفة والتفلسف، لا تتأتى للمرء إلا بعد مجاهدة الفكر والنظر، وترييضها بالجدل وتحري البراهين الحقة واليقينية ما أمكنها الزاد المعرفي إلى ذلك. ومطلب الزاد المعرفي يطور المدارك ويمد في العمر العلمي لدى المرء، فالفلسفة مجموعة من الحلقات يربط بعضها بعضا نفيا وإثباتا، تقويما وقلباً. ثم إن هذه الحلقات المعرفية في تاريخ الفلسفة تعبير عن مواقف أدركها الفيلسوف تمام الإدراك في فترات متباينة من الزمن. وحصيلة هذا الإدراك ما خلَّفه الفكر الفلسفي من نقد وشرح وتلخيص وتعليق وتَحْشِيَةٍ على ما تراكم عنده من نصوص الحكماء الأُوّلِ... وليس لنا من الوقت منتدح لذكر تفاصيل ما أسلفنا من الكلام، إذ غايتنا من هذا المقال تحقيق القول في الحكمة والحكمة الموهومة[196]، وليس لكلامنا أن يمد رجله إلا قدر لحافه.

و الحق أن الوجود الإنساني يرتبط أيَّما ارتباط بالحكمة طردا و عكسا، والقول في الحكمة والحكمة الموهومة منذ اليونان مبنيان على ثلاث وجهات أساسية:[197] 1) الوجهة الطبيعية.[198] 2) الوجهة الرياضية.[199] 3) الوجهة الميتافيزيقية[200]. و قد واجهت هذه الوجهات الثلاث أكبر خطر واجهه الفكر الإنساني وهم السفسطائيون.[201] ومن ثم نحصل على أربع وجهات تؤثث بدايات التفكير الفلسفي عند اليونان ومن جاراهم من الأمم؛ قد تكون هذه الوجهات أكثر

---

[196] نعني بالحكمة الموهومة : السفسطة، يقول ابن النديم في فهرسته، محررا الكلام عن كتب أرسطو المنطقية الثانية ، "الكلام في السوفسطيقا ومعناه الحكمة الموهومة"ص310 . وكان قد قال قبل ذلك بصفحة واحدة: الكلام في السوفسطيقا ومعناه: المغالطين.

[197] تاريخ الفلسفة اليونانية ص9. يوسف كرم. السلسلة الفلسفية: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

[198] وهذه الوجهة مثلها كل من : طاليس وأنكسيمندريس وأنيكسيمانس وهيريقليطس(من أصحاب القرن السادس قبل الميلاد).

[199] وهذه الوجهة كان يمثلها : فيثاغورس وتلامذته: الذين كانوا يرون العالم على شكل أعداد وأن هذه الأعداد هي مبادئ الموجودات للمزيد من التوسع انظر أرسطو في مابعد الطبيعة.

[200] يمثل هذه الوجهة المدرسة الإيلية(l'Eole d'Élée ).

[201] تاريخ الفلسفة اليونانية ص9.

صورية، لما تثيره من أسئلة حول طبيعة العقل البشري وقضايا التأمل الفلسفي وبدايات الإدراك الواعي للوجود ومبادئه وعلله الأولى[202]. بيد أننا بحق أمام حالة تحول جذري في تاريخ البشرية، تداخل فيها العلمي بالفلسفي، والنتيجة المحضة بالجدل الباحث عن مسالك العلة ومكامن الحقيقة.

"وإذا أخذنا بتقسيم الحكمة إلى: حكمة قولية عقلية ـ وحكمة فعلية، فإن الحكمة القولية العقلية هي كل ما يعقله العاقل، والحكمة الفعلية هي كل ما يفعله الحكيم لغاية كمالية.[203]" ويشير الشهرستاني[204] إلى أن الحكمة القولية العقلية ثلاثة أقسام من العلوم:1) علم ما( وهي الباحثة في الماهيات ) أي الميتافيزيقا.2) وعلم كيف( الباحثة في الكيفيات) أي العلوم الطبيعية.3) وعلم الكم( الباحثة في الكميات) أي العلوم الرياضية. ويضاف إلى هذه العلوم الثلاث علم المنطق: باعتباره آلة العلوم؛ أما الحكمة الفعلية فهي طريق السعادة الأبدية، والتي لا تنال إلا بعلم الخير وعلم الحق[205] والفضيلة وتعيين على بلوغ الخير الأعظم. وللدارس أن يلحظ هذا الأثر اللغوي الذي تثيره هذه المصطلحات نفسها، إنها المفاهيم الأكثر جدلية والأكثر صعوبة من حيث إنها: أكثر ارتباطا بالإنسان، وهذا الإنسان لا يقل وعيه مثلا بالخير والحق والفضيلة عن وعيه بذاته. وذلك لقلة تمرسه بالجدل وضروب فنون القول اللاحقة بهذه

---

202 "الفلسفة هي معرفة نظرية المبادئ والعلل الأولى". أبو الفتح الشهرستاني في ملله ونحله،ج2،ص58ـ59 . تحقيق محمد سيد الكيلاني ، طبعة: شركة مكتبة ومطبعة البابي الحامي وأولاده بمصر.

203 نفسه، ج2 ص58ـ59.

204 نفسه.

205 نفسه.

المقولات. ونحن إذ نحقق هذا القول واعون تمام الوعي بما يمكن أن يثيره هذا الموضوع فيما يخص العقل البشري واختلاف قسمته بين الناس أنفسهم. فليس على كل ذي عقل أن يبحث وأن يتفلسف وإن كان ذلك هو المطلوب عقلا ونقلا!! وذلك ما جعل ابن رشد يتحرى، في غير ما موضع من كتبه، مُخَاطَبِيه ويقسمهم إلى أصحاب ظاهر وباطن، حسب مراتبهم في التأويل إعمالا له وإهمالا.[206] لكن لا ينبغي أن يعزب عن لب لبيب ـ وهذا هو بالذات ما أدى إلى تمكن التحرج والنفور من القلوب اتجاه القول في الحكمة[207] ـ حقيقة الفعل الفلسفي الذي نحن بصدد الحديث عنه، الرامي إلى إعطاء القيمة القصوى إلى الحكمة باعتبارها فعلا أخلاقيا، يجسد أحلام الشعوب يخرجهم من ظلمات الجور والظلم والشر والرذيلة إلى نور الأخلاق والفضيلة ومن ثم إلى السعادة التي لا تفنى بفناء الجسد، بل تبقى قائمة مادام الحق والعدل والفضيلة في وعي واع أو متخيَّل متخَّيل[208].

و الحكمة الفعلية ليست بغريبة عن واقعنا، فهي الأقرب إلى الناس العاديين، إذ هي منطلق معاملاتهم اليومية؛ ثم إن تحقيقها وتعليمها للناس، تجسيد لتلك العلاقة التي سطرها علماء الكلام منذ القديم عند ضبطهم للعلاقات الرابطة بين الإنسان وغيره: علاقته بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بالكون، وعلاقته بالإنسان، ثم علاقته بالآخرة. وهذه الفلسفة في

بعدها الشمولي تتطلب توضيحا لمسارات بناء الحكمة باعتبارها فعلا أخلاقيا؛ ثم تحليل هذا البناء باعتباره نسقا معرفيا أسهمت في تكوينه مجموعة من المؤثرات الداخلية والخارجية الكونية.

---

[206] فليرجع إلى كتابه:"فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال"، تحقيق:محمد عمارة، سلسلة: ذخائر العرب، طبعة دار المعارف المصرية الصفحات الأولى من الكتاب؛ ومقدمة كتابه:"الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة."ص 99، تحقيق:مصطفى حنفي. صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية، ضمن سلسلة التراث الفلسفي العربي:مؤلفات ابن رشد:(2). مع مدخل ومقدمة تحليلية للدكتور محمد عابد الجابري.

[207] للأسف فإن كل ما نعرفه عن الفلسفة، لم نكتسبه بطرق علمية ولم نتعلمه في المدارس فجل مداركنا عن الفلسفة أحكام مسبقة ليس إلا.

[208] هذه إشارة لما يمكن تحقيقه من هذا المزيات الأخلاقية، وعبرنا عنه بالوعي وما لا يمكن تحقيقه وعبرنا عنه التخيل.

وهذا ما جعلنا أكثر وعيا بالقيمة الأخلاقية للحكمة[209] أي الفلسفة، ودون إغفال للحكمة الموهومة، أي السفسطة والسفسطائيون، وهي التي تشكل جزءا مهما من تصورنا العام لهذا المقال.

إن الجو الفلسفي العام الذي تشهده مدرجات الجامعات لا يعبر في حقيقة الأمر عن وجود باحثين مؤهلين للقول في الفلسفة الأخلاقية بنزاهة و اهتمام فِعْلِيَيْن، وذلك لما يعانيه الباحث من تحديات مستقبل الوظيفة، وإكراهات الواقع، الذي لا يستطيع استيعاب ما تقوله الفلسفة نفسها، ولما يحمله عنها من أفكار مسبقة[210]. وفي وضع يرفض الفلسفة، كان لزاما على الفيلسوف بما تحمله الكلمة من دلالة، أن يحبب الحكمة للناس، بطرق أكثر مواءمة والنشاط الذهني لكل مخاطب:"خاطبوا الناس على قدر عقولهم". إننا لن نتحرج إذا قلنا إن القول في الحكمة الفعلية بوصفها فعلا أخلاقيا، وخلال هذه الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية المتدنية، أصبح ضربا من المغامرة، فمن ذا يمكنه أن يستثمر في الأخلاق غير أولئك الخليقين بها أكثر من غيرهم؟!

لقد تشكلت المعرفة الأخلاقية عبر العصور، وتدخل في تشكلها: الدين والعرف الاجتماعي، واستطاع الناس من خلالها تنظيم أنفسهم وأمورهم الداخلية والخارجية، ومن ثم تطوير مداركهم وتوطيد علاقاتهم بما يحيط بهم من موجودات. فمنذ العصور الضاربة في القدم، والإنسان يسهر على نماء وعيه ومعرفته، اتجاه الكون واتجاه ذاته على وجه الخصوص. "

[209] التعبير عن الفلسفة بالحكمة فيه شيء من التجوز إذا ما أردنا أن نكون أكثر إخلاصا للعرف الفلسفي العام. ونحن نتذكر تلك الصرخة التي اهتزت لها أركان الفلسفة لما قال فيثاغورس: "أنا لست حكيما لكني فيلسوف،أي محب للحكمة." كما تروي ذلك مجموعة من الكتب الفلسفية. غير أن صحة هذا القول ونسبته إلى فيثاغورس أمر مشكوك فيه كما يرى عبد الرحمن بدوي، إذ يترجح أن أول من استعملها هو سقراط" وأفلاطون يستعملها ليميز حب الحكمة عند سقراط من ادعاء الحكمة عند السوفسطائين." مدخل جديد إلى الفلسفة: ص8، الناشر وكالة المطبوعات، لم يرفق بتاريخ النشر.

[210] يتحمل فيها الفيلسوف والمؤرخ للفلسفة كامل المسؤولية على السواء"

فبعض المدارس الإغريقية لم تؤسس مفاهيمها الأخلاقية على الخوف من الآلهة ولا على الظواهر الطبيعية بل على فهم الإنسان نفسه لذاته؛ بينما البعض الآخر، كان قد جنح إلى التأملات التجريدية والميتافيزيقا[211]". إن هذه الرغبة الذاتية الماسة إلى الفعل الأخلاقي ـ منذ القدم ـ يعضدها العقل من جهة والارتباط العقدي من جهة أخرى.[212]

ثم إن ما ذكرناه من قبل في شأن الحكمة الفعلية وضرورتها، قد بدأت تظهر صعوبة مقاربته من خلال تحديد أنساقه المعرفية، إذ إن هذه الأنساق لا يمكنها أن تمكننا من جرد صحيح لِبُنَى المفهوم الأخلاقي من جهة، ولا يتأتى لنا من جهة ثانية تحديد ذلك النسق الفلسفي الذي تحدث عنه "نيتشه" فيما يخص الوجوه الأكثر تمثيلية للموضوع تاريخيا أو ما يصطلح عليه: " بالأنساق الكبرى للفكر الفلسفي"[213]، إن التاريخ قبل كل شيء مبني على متناقضات وبها يحيى وعليها يتغذى. إن مقاربة أو محاولة صياغة صورة تاريخية متكاملة عن موضوع مثل الحكمة الفعلية والسفسطة باعتبارها فعلا لا أخلاقيا، يتعثر أول أمره بتساؤلات أقرب ما

تكون بمصادرات لا ترقى إلى درجة اليقين بقدر ما تثيره من تشويش على عقلية الباحث، فالنظر إلى فلاسفة اليونان (الأخلاقيين) أنفسهم ـ وذلك ما اقتضاه العرف التأريخي للفلسفة ـ يجابه بسؤال لا يقل أهمية عن من موضوع نقاشنا : هل الفلاسفة الذين نظنهم أخلاقيين كانوا أخلاقيين حقيقة؟! هل كان أفلاطون ،مثلا، أخلاقيا في أفعاله؟! إننا أمام أسئلة لا تلقى من المؤرخ للفلسفة إلا بعضا من الحكايات التي تفتقر في عمومها إلى المنهج العلمي التاريخي الذي يجمع بين التأريخ للحكمة فعلا وفكرا، لا الاقتصار على الفعل دون الفكر أو الفكر دون

---

[211] **Moral anarchiste، p : 7-8، de Pierre Kropotkine. D'après : VOLONTE ANARCHISTE N° : 36.**

[212] على اعتبار أن للعقيدة( دينية أو غيرها) بالغ الأثر في تعيين مرجعية الإنسان، فكل يتصرف في سلوكياته الفعلية والقولية حسبما تمليه.

[213] إشارة للقضايا التي أثارها نيتشه في كتابه الموسوم ب: " الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي"((**la philosophie à l'âge tragique des grecs.**) راجع ص : 37.38.39.40.41. تعريب: سهيل القش، إصدار المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية سنة 1982.

الفعل. نعود ونتساءل كيف يمكننا أن نحددَ أو نُغَلِّقَ هذه الفراغات التي تشوه وجه النسق المعرفي لتاريخ الحكمة؟ بأي منهج وبأية أداة؟

صحيح أننا لا نريد إضفاء صفة العصمة على أفلاطون أو غيره من الحكماء، لكن ما ينبغي سبره في هذه المرحلة، هو مدى قدرة هؤلاء على الإخلاص لمبادئهم، فرجل القانون المتمرس في سَنِّ وتعديل الأحكام إذا كان هو نفسه غير مخلص لما هو منجز- إتيانا واجتنابا -كان كالراقم على الماء، وشأن القانوني شأن عالم الدين، فكلاهما مرتبط بالفعل الأخلاقي أكثر من غيرهما من الناس!

لقد خلدت لنا كتب التاريخ الفلسفي مقالة شيشرون **Cicéron** : " إن سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، أي أنه حول النظر من الفلك والعناصر إلى النفس."[214] إن هذا التحويل الذي تحدث عنه شيشرون، ليس تحولا غير واع بحجم الفترة، بل صدر عن

وعي سقراطي وقاد، بالجانب النفسي الإنساني أكثر من أي جانب آخر، إن الإنسان، الذي من المفترض أن سقراطاً قد عناه بأقواله الجدلية الصاعدة والعقلانية (التهكم وتوليد الأفكار)، كان بين مطرقة وسندان السفسطائي، الذي كان يتميز بقدرة على تمويه الأشياء، وعزوها إلى قوة خارجة عن إرادة الإنسان، "وأن القوانين وضعها مشرعون لقهر الطبيعة، وأنها متغيرة بتغير العرف والظروف فهي نسبية غير واجبة الاحترام لذاتها...فقال سقراط بل إن الإنسان روح وعقل يسيطر على الحس ويدبره، والقوانين العادلة صادرة عن العقل ومطابقة للطبيعة الحقة وهي صورة من قوانين غير مكتوبة رسمها الآلهة في قلوب البشر فمن يحترم القوانين العادلة يحترم العقل الإلهي...والإنسان يريد الخير دائما ويهرب من الشر بالضرورة، فمن تبين

[214] تاريخ الفلسفة اليونانية، ص67.

ماهيته وعرف خيره بما هو إنسان أراده حتما، أما الشهواني فرجل جهل نفسه وخيره ولا يعقل أنه يرتكب الشر عمدا، وعلى ذلك فالفضيلة علم والرذيلة جهل."[215] إن هذا الكلام لا يمكن أن يخرج إلا من فم رجل قد خبر الدنيا وعرف معناها جيدا، لا يمكن كذلك، وهذا ما يهمنا، إلا أن يعبر عن نسق فكري حيٍّ، طالما كان مصدر بؤس لأعداء الحقيقة. سقراط في حقيقة الأمر كان أكثر واقعية وعقلانية، مما أهله أن يصبح رمز التضحية والتفاني بالنسبة لخلفه أفلاطون. إننا اليوم لا نذكر هذا الكلام بحثا عن فكرة ضائعة في دهاليز التاريخ بقدر ما نبحث عن صور تمثل الفكرة وتطبيقها، فالتاريخ لا يمكنه أن يحفل إلا بأحداث وأخبار يعتريها في الغالب الأعم، اتصال وانقطاع وفراغ، نادرا ما يتم تَغْلِيقُه، وإن تم ذلك، فقليلا ما تحدونا

الرغبة للاستفادة من نتائجه، إننا، في بعض الأحيان، نكون غير واعين بما نحن مقبلين عليه، من تحديات العصر والعلم.

النسق المعرفي، من الأمور التي تسهم في توضيح رؤانا نحو الأشياء والمواضيع؛ سقراط ليس وحده في التاريخ الفلسفي الذي جاهر بالحقيقة وأعدم في سبيلها؛ إننا قد نختلف في وجهات النظر السقراطية، بيد أننا، نكون أكثر انفتاحا عليها، نستفيد من خطواتها المنهجية ما أمكن، نحول ثمارها لصالحنا. سقراط ابن عصر كثر فيه، المغالطون، والمدافعون عن العبث المعرفي والوجودي، والحال هذه، كان من المفروض أن يظهر للخلق رجل يدافع من أجل قيم الخير والفضيلة.

إن ما نقع فيه من أخطاء عند مدارستنا للحكمة الفعلية الأخلاقية، هو أننا نصادر بمجموعة من الآراء الفلسفية الغربية ـ على الخصوص ـ التي ترى أنها نادت بالأخلاق وهي في فحواها لم

[215] تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 67.68.

تنادي إلا بأمور ظُنَّ أنها من الأخلاق وما هي من الأخلاق في شيء! وخذ خير مثال على ذلك فلسفة حقوق الإنسان، التحررية، وما تنشره من إباحية، في جواز الزواج بين المثليين، بدعوى تقرير حرية الفرد في اختيار أفعاله، مع الإقرار بلزومه ـ في الآن نفسه ـ نتائج أفعاله وممارساته؛ ويمكننا حصر هذا المستوى فلسفيا[216] في مقررات الفلسفة الوجودية

الإلحادية[217]، التي ترى أن الأخلاق لا يستقيم معناها، ولا يتضح طابعها الإلزامي إلا إذا كان الإنسان هو من حددها من غيرما استناد إلى قيم جاهزة أو سابقة **a priori**، بل ينبغي أن تكون مستندة إلى الغريزة والعاطفة، كي تكون أكثر مصداقية؛ يقول جون بول سارتر:" ولقد كتب< دستويفسكي> مرة: ـ إن الله إذا لم يكن موجودا فكل شيء مباح ـ وما كتبه < دستويفسكي> هو النقطة التي تنطلق منها الوجودية، والتي نعتقد فيها أنها إنكار وجود الله يعني أن كل شيء يصير فعلا مباحا[218]..." ثم يتابع قوله في نقده للأخلاق قائلا: "القيم الأخلاقية غامضة غير محدودة، وهي تمتد وتتسع إلى ما لا نهاية(...) وإزاء غموضها ذلك لا يسعنا إلا أن نرفضها، ولا يتبقى لنا إلا الغرائز نلجأ إليها ونستلهما الحل الصحيح"[219] ويظهر أن سارتر قد رفض القيم الأخلاقية بناءا على إنكار بعدها المصدري أولا، ثم على عدم استيعابه لها وفهما ثانيا، وهكذا فلم يبق له إلا الغرائز ،لها يلجأ ومنها يستلهم قيمه الأخلاقية.

---

[216] تمثيلا فقط ، وإلا فهناك مستويات عديدة، يجدر بنا العودة إلى التحدث عنها باستطراد في مناسبة ، إن شاء الله تعالى.

[217] التي عرفها القرن العشرين، مع جون بول سارتر" **J.P.Sartre** " (1905ـ1980م) ؛ ولا نقصد هنا، أن الفلسفة الوجودية ابتدأت مع سارتر، بل على سبيل التمثيل فقط، وإلا فالفلسفة الوجودية قد ظهرت معالمها الأولى منذ القرن السابع عشر مع بليز باسكال **Baise Pascal** (1626ـ1662)، وكما قررنا في البداية أننا نبحث الوجه الأكثر تمثيلية للقضية المعرفية، التي تتولى الحديث عنها.

[218] عن كتاب: " الفلسفة مذهب إنساني "ص25ـ وقد ألحق به، مناقشة كان قد أجراه سارتر مع الكاتب الماركسي م. نافيل ـ ترجمة عن الفرنسية: عبد المنعم الحفني. عن مطبعة الدار المصرية للنشر والطبع والتوزيع، الطبعة الأولى 1964.

[219] نفسه، ص29ـ 30ـ31ـ 32ـ 33...

ثم إن هذا الاختيار غير سليم منطقيا، لأنه مبني على مقدمة فاسدة ـ عدم وجود الله ، مقدمة جدليةٌ احتماليةٌ، لأنها غير مستندة إلى دليل، يقيني وكلي، أصلا ـ إضافة إلى أنه مفض إلى نتيجة عنادية وهي اللجوء إلى الغرائز باعتبارها أساس القيم الأخلاقية.

إن هذا التعليل وهذا الإنكار، مصدره عجز إدراكي قبل كل شيء. ولا نقول هذا القول حماسة وعاطفة اتجاه ما نعتقده في وجود الإله ووحدانيته، بل بناءا على أسس عقلية منطقية أثبتت لنا أن القضية التي تثيرها الوجودية قضية معاندة إن لم نقل جاحدة، وذلك لأنها مبنية على احتمال عدم وجود الإله، وما بني على الاحتمال والفرض، فنتائجه إذا لم تعضد بقرائن وأدلة يقينية أو تصير إلى اليقينية، تكون احتمالية وافتراضية. وهذا بالضبط، ما وقعت فيه الفلسفة الوجودية الإلحادية، إذ ألغت وجود الإله، بغير ما دليل، وألغت كل القرائن أو لم تعرها، على الأقل، يسير اهتمام. وعلى هذا الأساس، فإنكار وجود الخالق، قضية نفسية، قبل كل شيء، ولا مجال لنا هنا لتحرير القول في هذه المسألة.

ثم إن ربط الأخلاق، بالغرائز هو إقرار، ضمني بطغيان البعد الحيواني على النوع البشري، مما يتيح لنا إمكانية إدخاله إلى المختبر، ومعالجته كأي كائن بيولوجي[220] آخر، يموت ويحيى، وينمو ويذبل، مجرد عن أي غاية، مكبل بقلقه وسقوطه ويأسه[221]، إننا أمام وضعية يرفض فيها الإنسان، كل قيمة أخلاقية لم يكن هو مركز إنتاجها. وهذا الرفض ليس رفضا علميا مبررا، بل

220 انظر كتاب المجتمع البشري بين الأخلاق والسياسة، لبرتراند راسل، ص9. ترجمة عبد الكريم أحمد، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة. لم يرفق بتاريخ النشر.

221 هذه المصطلحات تشكل الحقل الدلالي الأكثر تداولا في فلسفة سارتر، يقول في نفس الكتاب: "ـ عن السقوط ـ معناه أنني أحدد وجودي، وأتخذ موقفا حيال نفسي، أو هو هروب الإنسان من ذاته، بوصفها قادرة على أن تكون نفسها. والسقوط، فرار من القلق، لأن القلق يتهدد وجودنا بأسره، ويعزلنا أمام أنفسنا....معنى اليأس أننا نقصر إمكانياتنا على مجموعة منها، هي المجموعة التي في نطاق إراداتنا..."ص18.19.20.21.22.23. 24.25.26.27.28.29.30.31.32.33.34.35. وللمزيد من التوسع انظر كتب سارتر وعلى الخصوص كتابه الموسوم بـــ : الوجود والعدم.

هو رفض أساسه عدم الفهم وليس الفهم، حقيقة. وعليه فلا سبيل للإقرار بهذا الرفض للقيم الأخلاقية ولا بمصداقيته العلمية البتة. والناظر في فلسفة سارتر الأخلاقية ـ حسب زعمه ـ

يجدها أكثر سفسطة ومغالطة. وإذا ما أردنا أن نقارنها[222] بفلسفة وبروتاجوراس[223] **Protagoras** (485-411 ق.م)، فهي إليها أقرب : إذ جعلت الإنسان هو صانع حريته وقيمه الأخلاقية؛ في حين جعلت سفسطة بروتاجورس الإنسان معيار ومقياس كل شيء.

وعلى كل، فالناظر إلى الأنساق المعرفية التي تواجه طريقنا إلى الحكمة الفعلية، باعتبارها مبدءا جديرا بأي فلسفة أن تجعلها منطلقا لها، تؤسس به للأخلاق بكل عقلانية، غير منفصلة عن أبعادها الروحية السامية، مؤكدة، بذلك، على الميز الذي يجعل النوع البشري أرقى، وذا غاية وجودية معروفة ومعلومة بالضرورة لدى كل بصيرة. وهذه الغاية، لم يسطرها العقل بل سطرتها المشيئة الإلهية قبل كل شي، وإلا فلا معنى للأخلاق خارج هذه الأبعاد والغايات.

ونحن إذ نسطر هذه الأبعاد والغايات، من خلال إيرادنا، لهذه الوجوه الأكثر تمثيلية للحكمة الفعلية الأخلاقية والحكمة الموهومة، كان هدفنا، هو الوصول إلى غاية محددة: وهي أن النوع البشري، لا يمكننا دراسته دراسة أخلاقية، إلا داخل إطار غائيته **Téléologie**. هذه

---

[222] والحق إنها مقارنة جزافية، إذ لا يمكن علميا اعتبار الوجودية بوصفها مذهبا فلسفيا بالمغالطة؛ وإنما قلنا ذلك بالمعنى العرفي العام لكلمة السفسطة، وعلى كل فهي مقارنة مع وجود الفارق اليسير...ومثال ذلك ما ذكره أرسطو في كتاب الطوبيقا عما تراه المتسفسطة:" أن الذي هو موسيقار ويصير نحويا ليس متكونا ولا أزليا. وذلك أن هذا، وإن كان لا يراه أحد، فقد بأنه شيء لأن فيه قولا."ص506،ج2.

[223] "أقدم سفسطائي معروف هو اليوناني بروتاجوراس، ولد في{أبدير}...اتهم بالتحليل والإلحاد استنادا إلى كتاب ألفه عن الآلهة، وبدأه بهذه الكلمات: " أما الآلهة، فإنني عاجز عن القول إذا ما كانت موجودة أم لا" وأحرق الكتاب علنا، وبروتاجوراس إلى صقلية، لكنه غرق في البحر...ثم ترقت الفلسفة البروتاجورية إلى القول بأن كل معرفة مستحيلة، فإنه إذا لم تكن هناك أي حقيقة موضوعية، فإنه لا يمكن أن تتحقق أي معرفة بها." انظر كتاب: "الفلسفة والإلهيات: نظرية المعرفة".ص355-356. وكذلك كتاب : "تاريخ الفلسفة اليونانية" ليوسف كرم ،ص59-60-61.

الغائية، أدركها الحكيم الموجه بالنور الإلهي، وأغفلها ،في الآن نفسه، المغالط المشرد عن هذا النور.